حول المنطلق الأسطوري للهجرة والتحضر

البدو، الرحل، وسطاء كنماذج لما يسمى "بالإنسان المرن"

كريستيان ريدر

إن مظهر التحضر النموذجي البادي على واحدة من "أقدم عواصم العالم" كما هي الرواية البديهية في سورية، يغري بالضياع في البحث عن الانعكاسات التي عززت من علاقات التبادل وتسوية الصراعات الحيوية المرتبطة بأزمنة وأمكنة معينة. من مثل هذا المدى اللانهائي تنقذنا بعض المرتكزات التي يقع أحدها منسياً في الضاحية القريبة، لم تتضح أهميته إلا مؤخراً وبالتدريج، والذي يبدو كالدخول في متاهة، في عوالم الرمز التي يمكن إسقاطها بشكل يتجاوز أساليب التعبير الواردة في الكتاب المقدس، لأن الحديث عاد يدور مجدداً وبقوة عن الصراع بين الحق والباطل، عن القصاص، وعن الحضر والبدو.

قابيل وهابيل

يقوم الموقع الذي يقال أن أول عملية قتل في التاريخ، أول عملية موت على الإطلاق قد وقعت فيه، كبداية للديناميكية الاجتماعية، على مرتفع مجاور لدمشق، على منحدر جبل قاسيون. إنه "وجهة نظر" (Point of view) بالمعنى الحقيقي والافتراضي. من آخر البيوت المتلاصقة كالعلب، الواقعة على أطراف المدينة، يقود طريق صخري نحو الأعلى. يطلق على مسرح الحدث الذي لا يمكن بلوغه إلا سيراً على الأقدام اسم "مغارة الدم" حيث يدل فم الجبل الفاغر على هول فعلة قابيل وموت هابيل. إنه جزء من نصب تذكاري قديم تحيط به جدران عالية له باحة داخلية فيها أشجار، وفيها جامع صغير وغرف للمبيت. يقال انه في الأزمنة القديمة كان يقوم هناك معبد. لكن هذا الموقع لم يحظ بأهميته بالمعنى العام وكذلك الأمر بالنسبة لقبر هابيل الواقع في وادي بردى على مسافة تقل عن مسير يوم واحد منه، حيث قام الفاعل نفسه – حسب أول النصوص المتوارثة من هذا النوع – بدفن جثة أخيه بعد أن شاهد غراباً ينبش في التراب ليريه كيف يواري الجثة فيه (القرآن ٥، ٣١)[1].

مثل هذه الاختلافات بين الزعم والقبول هي بالضبط ما شدني للاعتقاد بأن ذلك لا يخص ديناً معيناً. بالنسبة لحدث مركزي أسطوري متعلق بتاريخ الحضارة تدهشنا الطريقة المتحفظة والهادئة في التذكر. تكفي إمكانية أن كل ذلك كان يمكن أن يحدث هناك، لأنه انتقل عبر الأجيال بهذا الشكل. والأمر هكذا أيضاً بالنسبة لشجرة معرفة الخير والشر القائمة وسط الجنة (التكوين ٢، ١٧)[2] ومن ثم أطراف منطقة "القرنة" المعدمة الواقعة عند التقاء نهري الفرات ودجلة أصبح الأمر هكذا أيضاً. عندما مررت من هناك قبل سنوات رأيت شجرة وصفت لنا على هذا الشكل، كانت محاطة بسور ويقوم جندي على حراستها، لست أدري إن كانت هذه الشجرة قد عايشت كل الحروب التي حدثت منذ ذلك التاريخ وبقيت شامخة، لكن الأوراق التي أحضرتها منها تقبع الآن في محفظة موضوعة في مكان ما. إن هذه المحاولة لتحديد مكان جنة عدن تعود إلى المهندس المعماري الإنكليزي "وليم ويلكوكس"، الذي اعتقد أن بإمكانه أن يوفق بين أخبار الكتاب المقدس ومجاري الأنهار المتواجدة في المنطقة[3]. هناك صلة أقدم بكثير بين قابيل وهابيل من جهة وتلك المغارة المتواجدة فوق دمشق من جهة أخرى. مسألة أنه منذ القديم، على الأقل منذ قرون، يتوجه الحجاج إلى هناك، وصفها رحالة مثل ابن جبير الذي زار المدينة عام ١١٨٤ ميلادية، أو ابن بطوطة الذي زارها عام

١٣٢٦ ميلادية بنفس الأهمية نقلاً عن تواريخ قديمة. "فقد اتفقا على أن إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب – عليهم جميعاً السلام – قد صلوا في هذه المغارة"[٤]. وفي مكان آخر غير بعيد عن هذا المكان تم تحديد مسقط رأس إبراهيم، الذي بنى الكعبة في مكة مع ابنه اسماعيل (القرآن ٢، ١٢٧) كإمكانية، لأنه، أي "أبو الشعوب" ينحدر من منطقة أور في العراق الحالي، كما هو شائع. وكمكان ليوم الحساب فإن جبل قاسيون ومئذنة عيسى في الجامع الأموي اللذان ينافسان جبل الزيتون في القدس ووادي يوشافات القريب منه قد أصبحا جزءاً لا يتجزأ من المعتقد الشعبي الإسلامي.

إن مثل هذه الرموز الشاذة عن الترتيبات المعتادة لا تجد في الدراسات الموضوعية إلا ذكراً هامشياً وساخراً في أغلب الأحيان، ربما بسبب الشك في أصالتها. كان الأمر بالنسبة إلى جميع الفرقاء المعنيين يتعلق بالطبع في جعل الحدث المتعلق بالمعتقد أكثر واقعية نتيجة وجود أماكن معينة مهما كان ذلك خيالياً أو وهمياً. لكن مجالات التخيل يمكن أن تتوسع لتشمل علاقات، ودون إصدار الحكم الفوري، بين الخاص والغريب، أي بين المشهور والأقل شهرة.

إن الحديث عن الاختلافات يضعف الاستعداد لإدراك التشابهات، وهنا إذا ما طبقنا الأمر على التاريخ فإن "الميثولوجيا بطبيعتها" هي الدين والفن والفلسفة" كما يؤكد في هذا المعنى أيضاً صادق جلال العظم الذي يعتبر منذ صدور كتابه "نقد الفكر الديني" فيلسوفاً سورياً تختلف الآراء حوله، لأن الفكر الأسطوري ليس سوى مجرد خرافة، وينفي عنه أنه "قوة حضارية خلاقة".

وحتى يمكن أن يشمل التفكير أيضاً عند الاهتمام بمثل "هذه المواضيع الديناميكية التي لا تصدق، وقوة ضغط وسحر الحداثة" الذي لا يمكن الوقوف في وجهه كما يسميه، فإن الأمر يحتاج بين حين وآخر إلى "استراتيجيات قلب الحقائق والاندماج والمزج بين الدنيوي والمقدس، بين المضحك والسامي وبين الجد والهزل"[٥]. وقلما يمكن للتعامل التقليدي مع هذا الأمر أن يشكك بالنماذج المسبقة سابقاً. وهذا أيضاً له أسس أسطورية بوجهات نظر "غربية" تنطبق بكل بساطة على مصر وفلسطين وسورية والأناضول وبلاد ما بين النهرين، بظهور المجتمعات المسيحية المبكرة الكبرى.

والمدن المسيحية الهامة الأولى مثل أنطاكية ودمشق والإسكندرية وأقدم المؤسسات الكنسية والزهاد ومؤسسات الرهبان والراهبات والأديرة، من الناحية الثقافية، تلعب مع ذلك دوراً أساسياً في الصراعات، كما ان الحروب على المواقع المذكورة في الكتاب المقدس قد تم تبريرها بعبارات مأخوذة من الكتاب المقدس نفسه. أما في المواضيع ذات الطابع الإسلامي فتتضح "مدى قوة تغلغل لغة القرآن في اللغة الأدبية ولغة الحياة اليومية" حتى ولو أن الكثيرين ممن تأثروا بذلك لا يفهمونها إطلاقاً[٦]. فالواقعة الجمالية تقف – بخلاف ما هو عليه الأمر بالنسبة للكتاب المقدس – على قدم المساواة مع مكونات المضمون[٧]. وبالنسبة للمواقف الراديكالية يمكن أن يكون هناك سوء استخدام لمثل هذه النصوص. والملفت للنظر في عوالم المفاهيم الغربية هو مدى التأثير المجازي لأساطير التكوين الواردة في العهد القديم على بداية الإنسانية في وضعها للرعاة مقابل الفلاحين، والبدو مقابل المستقرين أو القرية مقابل المدينة، بشكل أقوى تقريباً من خطيئة آدم وحواء، حيث يتعلق الأمر، كما هو معروف، بالمعرفة. فالحياة كرحلة، كطريق شائك، كرحلة روحية، ومثل هذه الصور التي تنسحب على أشكال متنوعة من النفي، وعلى المجتثين، والطريدين، واللاجئين والمشردين، لكن المهاجرين ظلوا قصداً خارج هذا النطاق، كقدر وهمي.

إن ما يفد على الحواضر من الخارج يكون له تأثير على تركيبها الداخلي كأمكنة للاختلاط. وبدون التطرق إلى ذلك لا يمكن التفكير الآن بالمدينة والحضر. وردود الأفعال على الحدث الحقيقي تبدو ميالة إلى الاعتماد على حكايات الترحال اليائسة الواردة في النصوص القديمة.

هابيل، الراعي كان عليه بحكم مهنته أن يجول حول قابيل كعقاب له "تائهاً شارداً تكون في الأرض" (التكوين ٤، ١٢). وأصبح الآن "واحداً من الضائعين" وحرفياً: "أصبح من الخاسرين" (القرآن ٥، ٣٠). ويعود سبب هذا التحول المنظم إلى حياة البداوة، الذي حدث بأشكال مختلفة، حسب هذه

الأسطورة إلى ما حدث على جبل قاسيون. وبشكل مختلف كلياً وملفت للنظر أصبحت الأرض الزراعية "الملعونة" (التكوين ٣، ١٧) جوهر الالتزامات الوطنية. أما الرغبة بالترحال أو الاضطرار إليه فاعتبرت حالة استثنائية، رغم اعتيادية وأيضاً حداثة مثل هذه الحالات. تغير شكل الترحال ليصبح مفهوماً متعلقاً بطريقة حياة، كظمأ إلى الحرية، سواء أكان محتقراً أو محترماً. بالنسبة للمفكر المسيحي الرائد أوغوستينوس، وكان هو نفسه من شمال إفريقيا، كانت منذ البداية قضايا الحياة الآخرة أهم، لأن هذا الموت الأول، موت بدوي قد أوضح "أن الموت لم يكن شراً، لأن الصالح هو من سبق إليه". أصبح هابيل بسبب دمائته شهيداً وشاهداً. أما قابيل فقد أصبح بسبب حسده، كما ذكر في موقع آخر "ممثلاً فريداً للتعطش للسلطة"[٨]. أما عالم الأديان الكبير مارسيا الياد، الذي ينحدر أصلاً من رومانيا، فيقدم بدوره وبكل صراحة شواهد على التحضر والمجتمعات الحاضرة التي صاغتها التطورات التقنية بقوله: "إن اسم هابيل يعني أصلاً "راعي" واسم قابيل على العكس من ذلك يعني "حداد"".

واستناداً على الوضع المتناقض للحداد لدى بعض الشعوب الرعوية "الذي يحتقر أو يحترم لكنه يشكل على الدوام مصدر رهبة" يعكس "التقليد المحفوظ" في تقرير الكتاب المقدس الذي هو إظهار حياة البدو والرعاة "البسيطة والنقية" بالمظهر المثالي، ومناوأة الحياة المستقرة للفلاحين وسكان المدن. أصبح قابيل "باني المدينة" (التكوين ٤، ١٧) وأحد المنحدرين من صلبه هو "توبل قابيل" وهو الأب الأول لجميع حدادي الفلزات والحديد (التكوين ٤، ٢٢).

إذن فالقتل الأول حدث من خلال الإنسان الذي يجسد – إلى حد كبير – رمز التقنية وثقافة المدينة. وكل التقنيات متهمة "بالسحر" على الأقل ضمناً[٩]. وإبليس يعلم لماذا هو متفوق في ذلك على الإنسان "خلقتني من نار وخلقته من طين" (القرآن ٧، ١٢).

هناك نماذج توضيح شاملة من هذا النوع لا تخطر للمرء في الموقع المفترض للحدث، فهو أقرب إلى كونه نقطة انطلاق. وقد أعطي الجواب على القوة الرمزية للفعلة بتركيب هادئ وتأملي كما هو الحال في مواقع مقدسة أخرى في المنطقة المحيطة، مثل قبر فاطمة بنت محمد في مقبرة الباب الصغير جنوبي المدينة القديمة، أو قبر صلاح الدين بالقرب من الجامع الأموي الموجود في أحد صناديقه رأس يوحنا المعمدان بشكل هامشي أيضاً في مكان ما من القاعة الكبرى للجامع. لا يبلغ المغارة إلا من يتحمل عناء الصعود إليها. وللاهتداء إلى الطريق يحتاج الغرباء إلى مساعدة العارفين بالموقع.

منذ أربعمائة عام تقوم نفس الأسرة على خدمة هذا المبنى، وطريقتهم في السرد تعرف المرء بالصيغة الإسلامية للصراع بين الأخوين. هنا يتعلق الأمر بامرأتين، لأن هابيل تزوج أخت قابيل التوأم الجميلة بينما تزوج قابيل أخت هابيل التوأم الأقل جاذبية. والشيء المبهم أيضاً هو أن قابيل قد أنقذه الملاك جبريل من فم الجبل المطبق. وهناك تظهر بصمات يده التي اتكأ عليها وكذلك صخرة ثقيلة كرمز للفعلة وقطرات من الماء تنساب من الصخرة كدموع الجبل. وهناك حجر أحمر اللون ورمل أحمر يرمزان إلى الدم. ربما قررت العدالة الإلهية تخفيف عقوبة القتل في حالة الهيجان. والخاتمة اللاحقة الأفضل كانت بوضوح من نصيب "الراعي الصالح" الأول. ورغم ذلك لم تكن أنماط الحياة البدوية غير المبالية مقبولة إلا عند أصحاب الامتيازات. وهذا ليس بغريب أيضاً على التقاليد العربية، كصراع بين الرحل وسكان الواحات "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً" (القرآن ٩، ٩٧).

يبدو أن من أقام هذا الصرح التذكاري في جبل قاسيون كان مدركاً لهذا التناقض الذي لا يزال يفعل فعله، لأن في "مغارة الدم" لا يوجد إلا محرابان. أحدهما مخصص لإبراهيم الأب الأول الذي جاء من الصحراء والذي تحترمه كل الديانات التي نشأت في هذه المنطقة. ("إني جاعلك للناس إماماً" كما جاء عنه في السورة ٢ ، الآية ١٢٤، ثم أكد ذلك في السورة ٣، الآية، ٦٧ "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً"). والمحراب الآخر مخصص لاسم آخر مقدس، قلما هو معروف في الغرب خارج نطاق العالم الإسلامي، وهو الخضر، الذي أصبح تقصي أخباره منطقياً للحصول على ما هو خصوصي بشكل عام بمعنى خارطة أسماء، وجزءاً من عملية نقل تتجاوز الثقافات.

مداخلة حول الخضر وجورج شفيع الجوالين والمسافرين

بالنسبة لغير المطلعين يعتبر الخضر غريباً. ويشير وضعه المفترض في موقع أسطوري هام على مدى الجهل به. كما يشير أيضاً إلى مدى صعوبة الوصول إلى المراجع المكتوبة من قبل الجهتين. ومن أجل الاستقصاء عن الوسطاء المنحدرين من الأرض السورية الذين يلعبون دوراً كشخوص ومانحي أسماء في الشرق والغرب، بدأت أهتم بمثل هذه العلاقات وما يمت لها من الحكايات بصلة. وفي الدراسة الجديدة التي تعالج عوامل بناء الهوية التي قام به الباحث الأنتولوجي من فيينا جيهارد فارتاسيك بعنوان "أماكن الحج في التخوم السورية" والتي تتطرق أيضاً إلى المغارة نجد جواباً محيراً. فالخضر أو الخضر أو الخضير هو اسم وليّ مشهور، يعتبره المسيحيون في منزلة القديس جورج أو مار جرجس بالعربية. ويجسد عند المسلمين السنّة شخصية أسطورية تصل جذورها إلى ما قبل الإسلام[١٠]. وقد أيد ذلك ألبرت حوراني في مؤلفه "تاريخ الشعوب العربية". "فالينابيع والأشجار والصخور التي كان المرء يتضرع إليها قبل ظهور الإسلام أو حتى المسيحية من أجل الشفاعة والشفاء، كانت أحياناً مقدسة لدى معتنقي مختلف الديانات. وقد وجدت أمثلة على ذلك في العصور الحديثة. ففي سورية كان يكرم الخضر، هذه الروح الغامضة التي رأوا فيها القديس جورج، في الينابيع وأمكنة مقدسة أخرى"[١١].

وفي التفاسير القرآنية يسمى أبو العباس الخضر كحكيم يتنقل عبر العصور ومعلم موسى – المدفون أيضاً في دمشق حسب الأسطورة – ولقاؤهما يعتبر رمزاً له مغزى كبيرا (القرآن ١٨، ٦٠–٨٢). والعلاقات المفترضة ذات الدوافع التاريخية مع رواية الاسكندر مختلف عليها بالطبع من هذه الناحية. والسؤال "من هو الخضر؟" يظل مفتوحاً أمام تفسيرات عديدة. البعض يضعه في عداد الأنبياء "الذين تقبلتهم السماء أحياء وهم إدريس، الخضر، إلياس، وعيسى، ويعتبر شفيع المسافرين والخالدين، نهل من ينبوع الحياة". أما فيلسوف الصوفية الإسلامية الكبير ابن عربي الذي يوجد ضريحه في حي الصالحية تحت المغارة فقد استشهد بإقامة علاقات معه[١٢].

كما زعم بأن هناك تطابقاً بين إلياس والخضر "فكلاهما يعتبران كائنين خالدين وروحين حارسين لكل اليائسين"[١٣]. الخضر يعني حرفياً "الأخضر". "وكلما حل هذا القديس في بقعة تصبح خضراء وخصبة" كما ذكر في حكايات توضيحية. والأخضر كلون الإسلام يناسب ذلك. ومن المعروف أيضاً عنه أنه "المحتجب" كنموذج أولي سرمدي "للمحتجبين" اللاحقين، وسطاء للمدارك السامية. فعند وفاة محمد يقال أن صوته قد عزّى أصحابه. وبشكل خاص يلعب دوراً هاماً في التقاليد الصوفية كمرافق يتجلى فجأة وكمعلم ومساعد. وبالنسبة للطريقة الصوفية النقشبندية يعتبر الخضر الولي العاشر ضمن مجموعة "ذهبية" مؤلفة من أربعين ولياً، آخرهم حتى الآن الشيخ ناظم الحقاني الذي يعيش في دمشق.[١٤] وحتى أن الأنبياء العظام يعترفون بآراء مثل هذه الكائنات الفاعلة في الخفاء، فقد جاء ما يؤكد ذلك في السورة ١٢، الآية ٧٦ التي جاء فيها: "وفوق كل ذي علم عليم". وإذا ما تمعنا في رموز هذا الدور الوسيط، نرى أن الأساطير حول الخضر وجورج وكأنها طريقتين مختلفتين لهما أعمال خفية مجهولة متعادلة واستعراض القوة الهائل لهذا القديس المسيحي المعتبر في سورية ولبنان وقاتل التنين المعروف في الغرب لدى كل طفل. ولكن يبقى التوفيق بين ذلك مسألة جديرة بالملاحظة.

وتدل الأضرحة المخصصة لكليهما على التشابه المغروس في التصورات عن شخصيتهما. أحدهما في كنيسة الخضر في ازرع، جنوبي سورية، وآخر في قلعة حلب حيث يوضع الخضر على قدم المساواة مع حارس البوابة، جورج. وهناك قبر للخضر وآخر لجورج غير بعيد عن قلعة الحصن، حيث يقع غير بعيد عنه أيضاً دير مار جرجس. وفي بصرى هناك جامع الخضر. هناك صورة قديمة محفوظة في متحف علم الأجناس في فيينا لضريح جورج في دمشق لا يمكن التحقق منها، تظهر عليها صورة ربما كانت لمقبرة الشيخ رسلان، وهذا يعتبر من غير الممكن، إذ لم يكن هناك يوما ضريح قديس مسيحي. والنصب التذكاري الأرثوذكسي اليوناني لجورج في مقبرة القديس جورج في باب كيسان بدمشق يلقى كل تعظيم وإجلال.

أما فيما إذا كانت هذه الأضرحة حقيقية فلا أهمية له، كما يقال في الأحاديث بشكل عام، على تعظيم المؤمنين. فالأمر يتعلق قبل كل اعتبار آخر بالبركة الروحية، وفي الوقت نفسه بصاحب هذه الأمكنة المقدسة الأسطوري الفاني والمخلد بآن واحد، وطالما كانت مسألة إعادة صياغة أهميتها عملية معقولة[١٥]. وتقيم النظم المتضاربة جسوراً بين دوائر الإيمان، وهذا ما تنفيه الأوساط الرسمية عادة، فلم أجد في أي وصف غربي لجورج أية إشارة إلى الخضر. في المراجع الغربية نجد عادة أن كنيسة جورج في اللد في فلسطين قد شيدت فوق الضريح الأصلي لجورج.

بالنسبة لبعض من تحدثنا معهم من السكان المحليين فليس معروفاً لديهم إلا القليل عن وجودين متوازيين. أما بالنسبة لغطاس هزيم أسقف دمشق الأرثوذكسي اليوناني فالأمر يتعلق بشخصيتين مقدستين مختلفتين. إن إعادة النظام إلى هذه الفوضى المحيطة بهذه الشخصيات النموذجية الأسطورية، لن تؤدي أيضاً إلى نتيجة، ولكن للحكايات المتراكمة التي لا حصر لها، بعدها الأدبي الخاص وبخاصة في النماذج التقليدية Stereotypen . فأساطير القديسين المسيحيين تتهم بأنها تنفي أية ملامح فردية من خلال صورة متناسقة دائرية، وفي الأساطير الإسلامية يتركز الانتقاد على "التقادم الكلي للحكايات المتكررة والمتواصلة المتظاهرة بالتدين"[١٦]. رغم ذلك يظل لأحداث من هذا النوع طابع واضح على الثقافات. حتى في المفهوم الحديث المعتدل كنتيجة لعمليات التوسط الدينية – الدنيوية وأشكال مشابهة، يجب الترويج للشيء المثالي. "فمن يريد فهم الطقس الذي نشأ حول تشي غيفارا، لن يحوم حول تاريخ القديسين. ومن يريد أن يعرف شر رأس المال الاحتكاري على حقيقته، عليه أن لا يتجاهل الانشغال المطول بالشيطان"[١٧]. كما كتب هانس ماغنوس انتسنسبرغر. وبالمناسبة فقد كرس صادق جلال العظم أيضاً مقالة مطولة للشيطان[١٨].

وفيما يتعلق برمزية "مغارة الدم" الموجودة فوق دمشق، فالملاحظ أن الأسماء الأربعة المرتبطة بهذا الموقع: قابيل وهابيل وإبراهيم والخضر قد أظهرت بالدرجة الأولى الرابطة الغامضة مع جورج. فإبراهيم تجلى ثانية في أبراهام لنكولن. وصورة المنتصر على الشر وبطل الحملات الصليبية كان لها صدى أقوى، فقد أعطى الاسم لكل من جورج واشنطن أو جورج بوش وكذلك أيضاً لجورج أورويل، جورج براك، جورج باتاي، جورج بوشنر، جورج تراكل، جورج لوكاش، جيورجو دي شيريكو، جيورجيو شتريلر، جيورجيو أرماني، جيورجوس سيفيريس، جيورجي ليغيتي، جورج لويس بورغيس، ولملوك عديدين، أو حتى وصولاً إلى جبل افيريست، وبشكل غير مباشر لأعلى جبل في العالم. في الاستخدام اليومي الذي يتعدى آلاف المرات الاستخدام الرسمي اختفت منذ زمن بعيد أية علاقة مع الأصل ومع دوره التاريخي، حتى الصراع مع التنين كان يمكن أن يظهر في مكان آخر كمواجهة مع السلبي بشكل مطلق. والآن لو ظل معلوماً أن جورج من وجهة النظر الحالية لا يعتبر أوروبياً، وأن له نداً إسلامياً، لأمكن فهم انتشار اسمه بشكل أوضح كإشارة إلى شخصية متعددة الوجوه.

ليس معلوماً عن وجود الخضر سوى أنه يظهر أحياناً في مكان ما، أما بالنسبة لظهور جورج المسيحي بين حين وآخر فعلى العكس، إذ تنتشر عنه كتب سيرة منقحة بل ومتناقضة. وقد صاغت له النصوص السورية القديمة شخصية حقيقية وجعلته بطلاً، ولم تجعله شبحاً يظهر في اللحظات الحرجة إلا أثناء الحملات الصليبية. وحسب هذه النصوص فقد انحدر من تركيا، ودخل الخدمة العسكرية الرومانية، ثم مات حوالي عام ٣٠٠ في فلسطين، بعد تعذيب أليم، كشهيد. وحول الصراع الأسطوري مع التنين، الذي قيل انه حدث قرب مدينة سيلينا في مقاطعة ليبيا (وربما أيضاً في كابا دوقيا) فقد قيل انه هبط من السماء. وانتصار جورج عليه يشكل فهماً جديداً، بينما تعتبر ابنة الملك التي أنقذها تجسيداً للكنيسة. بالإضافة إلى ديميتريوس وتيودور يعتبر جورج في عداد أكثر القديسين تعظيماً لدى الكنيسة الشرقية. وهؤلاء الأخيرين يستقبلان الزائر على بوابة كاتدرائية كارتريس. وقد ذكرت مجموعة الأساطير المسماة "ليغاندا أوريا" من القرن الثالث عشر "أن جورج ظهر بعتاد أبيض للفرسان الصليبيين على أبواب القدس مرسلاً من قبل الله إلى الأرض قام بدعمهم في دحر المسلمين

والاستيلاء على القدس". بهذه الخلفية أصبح رمزاً للفروسية وشفيعاً لريتشارد قلب الأسد وإنكلترا. وقد أطلق اسمه على جورجيا (الروسية) وولاية جورجيا الأمريكية. ويعتبر مولى لكل من الجنود والفلاحين والخيالة وعمال المناجم وصانعي السروج والحدادين وصانعي البراميل والكشافة والبهلوانات والجوالة والسجناء وعمال المشافي ودور العجزة والخيول والحيوانات. وقد جلب ما يعتقد أنه رأسه إلى قلب أوروبا، إلى جزيرة رايشيناو في بحيرة بودن (جنوبي ألمانيا. المترجم) كأثر تذكاري. وجلب ذراع من ذراعيه إلى كاتدرائية براغ والآخر إلى كاتدرائية كولونيا[١٩].

رسم ادوارد جيبون، "المتشكك والعالم المناهض للمسيح (حسب باربارا توخمان)[٢٠] في مؤلفه التاريخي الكبير حول الإمبراطورية الرومانية صورة مختلفة تماماً للقديس جورج، وذلك بعد أن قام بتحليل التقارير الأصلية بنظرة "باردة، دون تحيز وغير متدينة" كما يقول. فلم يبق هنا أي شيء من تلك الصورة المثالية. لأن جورج – وهو المنحدر من أوساط فقيرة – استطاع من خلال الخداع والرشوة أن يصبح تاجر شحوم غني يزود الجيش الروماني بالشحوم، مدفوعاً "بموهبته الطفيلية". وبعد هروبه من الملاحقة القضائية عبر كل الأصقاع السورية وجد في بلاط أتاناسيوس أسقف الإسكندرية "الموسوم بالقسوة والجشع" إمكانات جديدة. بينما كان يدور الصخب ضد سيطرته قامت الجماهير الغاضبة بإعدام جورج ومقربين آخرين دون محاكمة، ووضعت جثثهم "على ظهور الجمال في موكب النصر عبر الشوارع" وأخيراً تم إلقاء هذه الجثث في البحر، وكل التفسيرات الدينية جاءت في تواريخ متأخرة[٢١].

ويؤكد مختص آخر في مواضيع هذا العصر، مثل بيتر براون[٢٢]، أن الجو في بلاط أتاناسيوس، الذي كان كاتب سيرة قديس الصحراء أنطونيوس الذي جعل منه أسطورة، كان يعتمد على "الاختلاس واستخدام البطش". ربما أصبح جورج نتيجة لمرونته في التعامل مع مثل تلك الظروف التي بدت سرمدية، حامياً للجوالين والسجناء والبهلوانات ولكن أيضاً للجنود والخيالة والفرسان. أما الشخصية الموازية، الخضر، فقد أصبحت شفيعاً للرحالة واليائسين. وفي كلتا الحالتين يلعب عدم الاستقرار والبيئة غير الآمنة دوراً مركزياً.

ترحيل نماذج مخففة للعبء إلى أوروبا

شغلت الأشياء المشتركة بين التقاليد الدينية التي نشأت في منطقة شرقي البحر المتوسط أيضاً عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، إذا يقول: "إن الأولياء والشفيعين الذين تمتلك الثقافات القديمة عدداً كبيراً منهم "يؤدون" مهام اجتماعية ونفسية لا يستهان بها "لأنهم" كانوا ينفخون على رؤوس المرضى ويساعدون البؤساء ويفضون النزاعات ويهدون الناس على طريق الآخرة. وبعبارة أخرى كانوا يجسدون للإنسان الإيمان وكأنه شيء موجود بالفعل. وعندما يقع المرء في ورطة كان يلجأ إليهم سائلاً وطالباً المشورة". ولم يحدد فروقاً مذهبية في بداية الأمر. الأهم بالنسبة له هو الصياغة من خلال أنماط الحياة البدوية والحضرية. فبينما وجد البدو في الإسلام، ذي التركيب البسيط في بداية الأمر، عقيدة "تقودهم إلى تحقيق الانتصارات وغنائم الحرب"، كان سكان المدن الذين يعانون "مباشرة من سيطرة الدولة" ومن البؤس "الذي كان يجلب لهم دائماً الأمراض والأوبئة" بحاجة إلى ديانة "تواسيهم في محنهم وتمنحهم الطمأنينة والتفاؤل".

"من هذا المنطلق هم يحتاجون إلى شفيع يتوسط بينهم وبين الإله، لأنهم اعتادوا في حياتهم السياسية أن يظهر وسيط لتسوية أمورهم لدى الحاكم الجبار". من شأن هذه الحالات الإيحائية التي توفرها هذه المواضع المقدسة أن تقوي الثقة بالنفس، وأنها "كما أثبت البحث الحديث ذات أهمية كبيرة في الشفاء من الأمراض وحل المشاكل"[٢٣]. أما المواقع الموازية لتعليل تعظيم القديسين في الغرب فتقول: "لأن الدولة كمؤسسة عامة – قانونية غير موجودة، كان على المرء أن يبحث عن الحماية لدى "أقوياء" كانوا يطالبون لقاء ذلك بخدمات أو رسوم" وهناك واقع آخر هام وهو "البحث غير المجدي عن مساعدة لدى الأطباء (الذين يخسرون نتيجة هذا التناقض)[٢٤].

أما الشيء الذي حقق الشهرة لكل من الخضر وجورج، الأول اشتهر في منطقته، والآخر في كل أنحاء العالم تقريباً، فلم يتضح حتى من خلال شرح الغرائب المتعلق بهما. رغم ذلك بلغا منزلة رفيعة. كان الاسم الذي أعطوه لغيرهم الخطوة الأولى على هذا الطريق. وإذا ما سحبنا ذلك على التقاليد الأوروبية فقد تتضح مسألة وهي : "لم تظهر عادة تسمية الطفل على اسم قديس يوم المعمودية إلا في العصر الوسيط المتأخر" و"التعليمات القاضية بإطلاق اسم الطفل على اسم القديس أثناء التعميد" لم تبدأ إلا في بداية عصر التنوير"[٢٥] الذي كان رغم استقطابه الديني محكوماً بقوة بالأساطير، "كان دينياً في جوهره" كما قيل فيما بعد[٢٦]. علاقاته مع ذلك العصر ومع تقسيمه أيضاً واضحة بأساليب عدة. بالإضافة إلى ذلك فالقديسون هم الذين يتحكمون بالتقويم السنوي. وهذا المفهوم غير معروف في الإسلام، فيوم جورج هو الثالث والعشرون من نيسان، وحظي يوحنا المعمدان بيوم الانقلاب الشمسي الصيفي، أي الرابع والعشرين من حزيران، كقطب مواز لمولد المسيح في الخامس والعشرين من كانون الأول، أي الانقلاب الشتوي. وقد كان الشعار يقوم على "كل يوم هو عيد".

الكثير من هؤلاء الأشخاص الذين تم تحديد هويتهم ينحدرون من مناطق المسيحية الأولى في "الشرق". كانت الفكرة أول الأمر عبارة عن تخفيف عبء أكثر منها كنماذج مثالية. كان عليهم أن يقوموا بدور الوساطة والنيابة، أي ما لا يطيقه الإنسان العادي، أشياء مثالية كإيضاح للانحرافات. بعد ألفي عام استطاع حوالي ٦٠٠٠ "منصف" من القديسين المسيحيين المعترف بها والأبرار (حسب ما أطلق عليهم الكتاب المقدس) أن يحققوا لأنفسهم مكاناً في الفهرس. بالنسبة للإسلام وردت أيضاً أرقام مشابهة. ففي التقاليد الصوفية هناك الحديث عن حوالي خمسين ولياً في أعلى درجات الهرم التراتبي وثلاثمائة من "الصالحين" "وأربعة آلاف أولياء محتجبين"[٢٧] وأشهر الأولياء المسلمين الشعبيين هو عبد القادر الجيلاني (١٠٨٨– ١١٦٦). ومن القديسين المسيحيين خلال القرون الأربعة الأولى حتى إنشاء الكنيسة ينحدر على الأقل النصف من منطقة شرق البحر المتوسط، عشرون بالمائة منهم نساء، وحوالي ٣٠٠ منهم بقوا حاضرين مادياً من خلال آثار تذكارية موزعة. ولا نجد لدى أية ثقافة أخرى مثل هذا العدد من أضرحة القديسين في توزعها وانتشارها في نظام مكثف أعطى أوروبا معالم من القبور والافتراضات والأساطير.

في مجال التسمية ظلت مثل هذه العلاقات على المستوى الدنيوي قائمة. وبغض النظر عن الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في العهد القديم، من عيسى ومن يلوذ به والحواريين – ونقتصر هنا على الأسماء المستخدمة المأخوذة عن القديسين – فقد عد كل من مريم المجدلية وستيفان أو فيرونيكا، من حيث الأصل من فلسطين. وكان واضحاً أن سيمون من أصل سوري. أما ألكساندرا وأنطونيوس وفيليكس وكاتارينا وفيرينا فعلى الأغلب أنهم من مصر. أنطونيا وكورنيليا وفيليسيتاس وأوغوستينوس ربما كانوا من تونس أو الجزائر بمفهوم العصر الحاضر. أما باربارا وكريستا وكلاوديا ودوروتا وهيلينا ومارغريتا وجورج وجريجور وكريستوفوروس ونيكولاوس ومكسيميليان وتيودور أو فيكتور فقد عاشوا في ما يسمى الآن بتركيا[٢٨].

ومسألة أن منشأ قديسين مهمين من "بلاد غريبة" قد دحض بشكل منهجي، إلا أنه لم يستطع الإضرار بالتمسك بهذه الأسماء. وقلما كان هناك تأثير للانتقاد الموجه إلى القداسة "غير المثبتة". وكان ذلك يشكل مسألة عند إيراسموس فون روتردام. "خذوا قديساً بأسطورة مسلية وشاعرية مثل جورج وكريستوفوروس وباربارا، وسترون أنه سيكون أكثر تعظيماً من بطرس أو بولس أو حتى من المسيح نفسه" أو كذلك بالنسبة للمصلح الذي لا يقبل الوسطاء، مارتين لوثر، الذي قال عن باربارا "أن لا أحد يعرف بالضبط فيما إذا كانت قديسة أم لا"[٢٩]. ومن جهة أخرى بالنسبة للقديس نيكولاوس الذي يجلب الهدايا للأطفال في عيد الميلاد، بتقديمه بأنه من أصل آسيوي، قد أحدث الفوضى في الأنظمة الطقوسية. كذلك شفيع الفرسان الصليبيين جورج أو باربارا تلك التي يجلها عمال المناجم في الشمال قد جردا من ماضيهما الجغرافي في تركيا الحالية. بالنسبة لكل من كاسبار وملكيور وبالتازار والملوك المقدسين

الثلاثة من المشرق لم يسفر ذلك عن أية نتيجة، حيث يحتفظ لهم بنصب تذكارية في كولن وميلانو.

في أوروبا التي لم تعد منذ وقت طويل تتسم بأكثرية سكانية ذات توجه مسيحي، قامت الكنائس أيضاً بردة فعل ضمن سياق سقوط "قوتها التكوينية الاجتماعية"، مرة بالازدياد الناشئ حديثاً بتكريس القديسين، ومرة أخرى من خلال الابتعاد عن الكثير من الطقوس، لأنه "لم يبق هناك الآن عملياً حديث عن تعظيم النصب المقدسة، كما تم إحياؤها في القرن التاسع عشر. فقد بدا أن البلبلة الفكرية العامة قد تحولت إلى دقة". كما ورد حول ذلك في مرجع قيم حول موضوع "قديسون وآثار تذكارية". رغم ذلك ما يزال ينظر إلى القديس في تاريخ الدين (ويجب أن يقال القديسة أيضاً) بأنه الظاهرة الفعلية الحاملة للدين "وبظاهرة الشامان" ينظر إلى الوسيط أو بشكل أكثر وضوحاً، الغرابة عن العالم ضمن هذا السياق[٣٠]. أما مسألة فيما إذا ما كانت وظائف الوسيط من النوع السامي ممكن قبولها، وأي منها ممكن قبوله، فلم تعد تلعب دوراً أساسياً بعد مضي قرون طويلة على النزاعات المسيحية المسيحية حول هذه المسألة. أسفر ذلك عن انحرافات، لأن الحكايات المروعة الباقية في الذاكرة نتيجة التربية الدينية حول الملاحقة والتعذيب اعتبرت بأنها مبالغ فيها جداً[٣١].

راديكالية واضحة

إن مقياس أهمية الأماكن المقدسة المرجو منها القيام بدور الوسيط هو "الجاهزية القدسية" التي قدمت تعويضاً هاماً عن التقيد القسري بالمكان باعتبارها "مستعدة دائماً لتصبح مكاناً لطلب الرحمة". وقلما هناك خلاف بين المسيحية والإسلام والهندوسية والبوذية في هذه المسألة. فمكة ظلت معروفة على النطاق العالمي مثلاً كرمز على ذلك. وفي أوروبا كانت روما وسانتياغو دي كومبوستيلا وكنتربري وكولونيا والقسطنطينية لفترة طويلة هي الأمكنة المقصودة بالدرجة الأولى، وفيما بعد انضمت لوردس أو فاطمة إليها[٣٢]. نقاط جذب قديمة على هذه الشاكلة من بداوة الحج كانت – إذا ما ركزنا على سورية – قديسو الأعمدة. وكأنها جوهر السكونية المركزة للتسامي الذاتي. فالنساك عاشوا مجهولين في الاحتجاب وكأنهم بروتستانتيون مبكرون ضد سلوك أبهة وجبروت الكنيسة. وقد قدم خصومها أنفسهم وقدراتهم بصورة مفتعلة، أصبحت من حيث نمط السلوك نماذج فريدة.

قيل ان سيمون ستيليتس الكبير (حوالي ٣٩٠ –٤٩٥) قضى على الأقل الثلاثين سنة الأخيرة من عمره على عمود أقيم خصيصاً له، ما تزال آثاره موجودة حتى الآن في دير سمعان (قلعة سمعان) بالقرب من حلب، أقيم تكريماً له كأعظم منشأة كنسية في عصره. ومن موقعه الاستعراضي كان يراقب المحاكمات "يقوم بتنبؤاته، يشفي، وينذر ويستشير كبار الموظفين كما ورد في كتب ميرسيا الياد بعنوان "تاريخ الأفكار الدينية"[٣٣]. وحتى أواخر أيامه كان محاطاً "ببحر من الناس" من المعجبين من كل أنحاء العالم الذين تشربوا محضر هذا الرجل الذي يضرب الرقم القياسي ويأتي بالمعجزات وكأنه حجة إلهية[٣٤].

لأجيال عديدة ظلت أعماله المتطرفة قدوة. أما سيمون ستيليتس الأصغر فقد فاقه في مدة البقاء فوق العمود. ولو أن ذلك كان دون حشود من المشاهدين وأخبار عن ذلك، لكان كل ذلك قد أخطأ هدفه.

جاء في "قيام أوروبا المسيحية" عن مثل هذه الظواهر التي كانت ماثلة في الأذهان حول الفقراء الهنود، "في شوارع سورية كان المرء يصادف في ذلك الوقت وعاظاً ذوي كرامات، لا يدينون "للعالم" بشيء. وهم ناس كانوا يعيشون في عزوبية تامة، مستسلمين كلياً لقوة الروح المقدسة، وقد نوه لهم بأنه ربما من الأفضل لهم أن لا ينشدوا المزامير أثناء تجوالهم عبر القرى غير المسيحية، إذا ما أرادوا أن لا ينظر إليهم كموسيقيين جوالين. وهؤلاء كانوا "المتفردين" أي "المعتزلين" عن الدنيا. وفي مصر استخدمت كلمة موناخوس اليونانية بهذا المعنى، إشارة إلى هؤلاء الأشخاص، والتي أصبحت فيما بعد عبارة "الراهب"[٣٥]. وفي القرآن توجد عبارات متشككة حول ذلك. "ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم فما رعوها حق

رعايتها، فآتينا الذين آمنوا أجرهم وكثير منهم فاسقون" (القرآن٥٧، ٢٧).

وقد أرجعت عبارة مقدس إلى معناها الأصلي أي "قوي" ورأوا في الراهب والراهبة "نموذجاً أولياً عاماً"، وفي تعذيب النفس المبالغ فيه والفخر بتقديم مظاهر من "الزهد المتقن إلى حد كبير" وهي خاصية من خواص مراحل الاضطراب، وبشكل عام يبدو أن الأمر يتعلق بأشكال يمكن تكرارها من الهوس الذاتي والنرجسية[٣٦]. كانت هذه المعاناة الاستعراضية تهدف إلى الوصول لشيء ما، فقد حولت المعجبين إلى بدو (رحل) بصورة مؤقتة وهادفة. إذ نشأت نماذج لثقافة التصريحات– (Statement-Kultur). ثم قامت المتممات الخدمية اللازمة لذلك من تلقاء نفسها. ويمكن أن يتناسب تعريف ريتشارد سينيت "لنظام النجم" (Star-Systems) مع هذه العمليات، لأن هذا النظام "يقوم على فكرة أن المسافة بين الشهرة واللاتسمية تتسع باستمرار بحيث أن الناس أخيراً يفقدون أية رغبة في مشاهدة استعراض لا تظهر فيه شخصية مشهورة"[٣٧].

نموذج للتفكير. سكان الواحات والبدو

إن ملايين من الناس مرغمة على مشاركة قابيل المصير (والبعض يمكنه ذلك) "تائهاً شارداً تكون في الأرض" (التكوين ٤، ١٢). "فأصبح من الخاسرين" (القرآن ٥، ٣٠) . وبناء على ذلك كان كل الناس منذ البداية بدواً.

وبخصوص ممارسة فعلية فقد حاول عالم الاجتماع العراقي آنف الذكر علي الوردي إرجاع أساليب التفكير لدى البدو الغرب إلى أسلوبية حياتهم التي درجوا عليها واستمر تأثيرها لاحقاً حتى بعد تحضرهم. فمعالمها المرتسمة تنطبق أيضاً على آخرين: "البدوي يريد أن يفوز حيث يمكنه الفوز دائماً" كما ذكر حول جوهر هذه العقلية. ومن كل الناس "يقدر البدو أسمى التقدير السمعة الجيدة والهيبة الواسعة". "الديمقراطية البدوية تسود البدو طالما هم في الصحراء فقط". والتجارب التاريخية تؤيد فكرة أن "الشعب ينظر إلى الحكومة كعدو، لا يمكن أن يتوقع منه فائدة". "إن الاحترام الذي يكنه البدو "للمتعطش للقتل"، وهو إنسان مستعد دائماً ببساطة لأن يبطش ويقتل"، هو "نتيجة لقوانين القبيلة التي تركز بشكل مبالغ فيه على الشرف والعار، لذلك فإن الغيرة عندهم "أكبر وأقوى بكثير مما عند الحضر". إنهم يحتقرون الكثيرين، مثل ذوي النسب غير المقبول، الفلاحين، سكان المدن، وأصحاب الحرف بشكل عام، وفي الوقت نفسه يتضح أنهم، انطلاقاً من مصلحتهم الخاصة، عادة "يحمون هذه الفئة الأخيرة ولا يعتدون عليها"[٣٨].

إن إرادة الفوز بأي سبيل تبدو أول الأمر وكأنها تعبير عصري – كنموذج أساسي للديناميكية السياسية – الاقتصادية الغربية وتحت الشعار المعهود "ينال الإعجاب من ينتزع لنفسه ما يحتاج". وبما أن ذلك لا يتم دون إشكالات، فإن شبكات العلاقات المنحلة من أية مشروعية كتنظيم قبلي جديد، وتشكيل مجموعات قبلية وعشائرية، لوبي، عادت للظهور ثانية في كل مكان. وكما يبدو فإن مجتمعات قبلية جديدة بدأت بالظهور، "لأن القبيلة تتصرف وكأنها الجمعية الوحيدة ذات الجوهر، والتي يمكن اعتبارها بالفعل بشراً. أما بقية القبائل فهي أقل قيمة"، كما يذكر ريتشارد سينيت حول هذا الموضوع. ثم يؤكد "لكن المرء يفوته هنا شيء أساسي عندما يحاول فهم ديناميكية المجتمعات الحديثة على ضوء هذا التعبير الأنثروبولوجي. فزيادة التعصب ليست هنا بالأصل نتيجة التعالي المتراكم والتكبر أو الوعي الجمعي المبالغ فيه، بل تقوم على الأرجح على ديناميكة واهية يغذيها الشك بالنفس، تضمن فيها الجماعة كيانها من مجرد الاستعراض المستمر لثورات انفعالها"[٣٩].

إن "الخيار البدوي" كما حاول بروس شاتوين عبثاً أن يفهمه يفعل في مثل هذا المجال كإسقاط للرغبات، لأنه أراد أن يخلق من دوافع الترحال خطاً شاملاً عبر شعوب الصيد والجمع، والجاهزية المدروسة بعناية عند الشعوب التي تستخدم حيوانات الركوب، وصولاً إلى "الحنين إلى الجنة"، إلى الهروب من الواقع والماضي الرعوي للديانات الكبرى (لكن البدو مشهورون بعدم التدين) أو إلى الترحال الحالي للملايين (هناك دافعان هامان، اقتصادي وعصابي). إن كلمة "عرب"

للتعبير عن "سكان الخيم" كانت بالنسبة له نقطة ارتكاز هامة[٤٠]. فارتباط البدو بمسالك مرسومة، غالباً ما ينفى عندما تستخدم صورتهم لأغراض أخرى. فمسالكهم تبدو عند ذلك كنماذج لشبكات دائمة تسترشد بالإمكانيات، ذات نطاق تلاقي وواحات (يتعلق ذلك بالنفوذ والديناميكية والامتيازات والمزايا الضريبية والرفاهية). أما ممارسة السلطة فهي لم تعد هنا مرتبطة بالمركزية. أصبح مثل هؤلاء البدو الجدد الذين غالباً ما يبدلون نشاطاتهم وأماكن تواجدهم مثلهم مثل "الإنسان المرن" جوهراً معقداً "للثقافة الرأسمالية الجديدة" (حسب قول ريتشارد سينيت). المرونة تعني إمكانية الاستخدام، والانتماء إلى القبيلة لا يمكن أن يكون إلا وراثة أو شراء. أما الغرباء الذين يلوحون على الأفق فتتم مراقبتهم مراقبة دقيقة. فالنظام الذي يتحرك فيه الجميع "يشع لا مبالاة" كأية صحراء، ومن لا يناسبه ذلك "يرسل إلى الصحراء" فقد تحولت منطقة أسطورية قريبة من الإله إلى استعارة مجازية ساخرة للوحشة. وقلما توجد روابط بين العمل والمغامرة والثواب. "فالرابح يحصل على كل شيء"[٤١]. والقدرة على التنظيم الذاتي أصبحت مطلباً عاماً حتى ضمن التراكيب. تبخرت الحدود التي تفصل بين الدول بفعل جهة مجهولة. وبما أن مثل هذه التحولات يرافقها "اندثار نهائي للبداوة" (الأصلية) نظراً لأن أشكالها الأساسية لن تستطيع في القريب العاجل أن تشكل "بديلاً حقيقياً للاستقرار والزراعة"[٤٢] كما ورد في أبحاث متعددة، هناك الانطباع بأن اللعبة تبدأ مجدداً على مستوى آخر بشكل من الأشكال.

بذلك يمكن للصور المنقوشة أن تبهت، تلك التي قدمت، بفضل الإنجازات الذهنية في نقل الموروثات الدينية، مواقف بدوية وعلاقات مع الصحراء. حتى في أوروبا باعتبارها القارة الوحيدة التي تخلو من صحارى واسعة كان لجيرتها شديد الأثر الذي يحرك المشاعر التأملية بتناقض واضح مع براغماتية سكانها. فالأشكال المتنوعة للدين السائد هي مستوردة من هناك، والذهاب إلى الصحراء كان يعني الضياع الطويل أو الدخول من رابطة قوية مع قوى عليا. من أوهام المهاجرين الأوروبيين التي تجد بواعث في الكتاب المقدس نشأ الانطباع بأن كل أمريكا – وهناك من يميل الآن إلى القول أن بقية العالم – تجد نفسها حتى الآن في طريقها إلى الغرب النائي والموحش[٤٣]. وأصبحت منطقة البراري بديلاً عن الأرض المقدسة. في تصورات المسيحية الأولى كانت أهم قطيعة "ليست بين المدينة والريف، بل بين الصحراء والعالم" تلك الصحراء التي اعتبرت كمكان لحياة "ملائكية" بالنسبة للنساك، كما قال بيتر براون وأكده الفيلسوف بيتر شلوتر ديك، "يمكن للمرء أن يدعي بأن المركب الذي يعتبر حضارة غربية يقوم على مبدأ رفض الصحراء"[٤٤] وبأسلوب خفي ظل ذلك ماثلاً كخيال، مثله مثل الطور النهائي لرؤيا نهاية للعالم محتملة ومن صنع الإنسان. الشيء الجلي فقط هو أن التشريد النفسي ثم الحقيقي من بيئة الصحراء التي وردت في الكتاب المقدس قد خلقت استعدادات لفهم ذاتي أوروبي لفكرة الحملات الصليبية التي كانت موجهة أولاً ضد المسلمين، ثم ضد كل الأعداء المحتملين، كنمط تفكير يمكن استدعاؤه كلما لزم الأمر، لأنها في جوهرها كانت موجهة نحو العودة. ويمكن ملاحظة أن مثل هذه التصورات تتكرر دائماً رغم كل التأكيدات المتناقضة حول مدى أهمية خلق آفاق جديدة للتعاون بين أوروبا والجيران الجنوب شرقيين دون التوجه الأساسي نحو جعل دول النفط مجرد محطات للتزود بالوقود لضمان الجاهزية. إن تعابير مثل أرض المساء (أي أوروبا – المترجم) وأرض الصباح (أي المشرق – المترجم) كانت تهدف إلى الانفصال وكأن الشمس لن تشرق يومياً.

على الخرائط الصادرة عن أوروبا، التي تستغني عن التركيز المألوف على التشرذم، تظهر مدى المناطق الشاسعة من "العالم القديم" (التي يجب أن يضاف إليه جنوب أفريقيا وأمريكا واستراليا) المخصصة لأنماط الحياة التقليدية المتحركة. وإذا ما أخذنا مجرد الحركية (عدم الاستقرار) بعين الاعتبار نجد أن الفروق قد أمحت منذ أمد طويل. والشيء الذي بقي هو كنايات عن رواد بدو، كإشارة إلى أنماط كولونيالية أسطورية لرؤى غربية "إن الصحراء المترامية والبادية ذات التشكيلة المتشابهة والتي لا حدود لها، رائعتان" كما ورد في كتاب رودولف أوتو الأساسي بعنوان "المقدّس"[٤٥]. وإذا ما نظرنا من بعد لرأينا أن

مثل هذه المنحنيات سهلة بشكل جلي. فالتاريخ يوجه النظر على الحاضر، ومنذ زمن بعيد ارتحلت أكثرية الناس إلى المدينة. ومن سيهتم مستقبلاً في المناطق الجافة من الأرض، سيصبح مشكلة بيئية. كما أن موضوع "حرية اختيار مكان الإقامة" و"الهجرات" هو "عصر هجرة" (وسياحة) عالمي، وسمة بارزة من سمات الحداثة.

إن التقرير الأبدي القائل "كلنا مهاجرون" كان من شأنه أن يهز المواطنين الأمريكيين في بداية القرن العشرين[٤٦]. وبعد أجيال ثلاثة أصبح "الغرباء" مجدداً موضوعاً لإثارة الخوف كنقيض صارخ للتعبئة العامة ولم تعد موجات الهجرة خلال القرنين الماضيين "نتاجاً أوروبياً" كما كانت بالأساس. "لقد تم إنتاجهم". والنتيجة "أنظمة سياسية – اقتصادية تمنحهم المعالم والاتجاه" كما ورد عند ساسكيا زاسن، حول ذلك، وهي محللة مشهورة في مجال الهجرة العالمية[٤٧]. إن الرغبة اللامعقولة في إيقافها تنفي أن التفريق بين الخاص والغريب قد أصبح منذ وقت طويل مضى تراكيب هشة واهية. وقلما تساعد المقارنات مع الأزمنة الماضية، لأنه، وكما في أواخر العصور القديمة، ينظر إلى "البرابرة" المتدفقين والمتسللين عبر الحدود كخطر، ووصفوا بأنهم "غرباء تماماً ظهروا فجأة من اللاشيء رغم أنهم اضطروا أخيراً للاعتراف بهم كمواطنين"[٤٨].

وفي تحليلاته لمثل هذه العمليات يعتمد حتى منظر اجتماعي متنور مثل ريتشارد سينيت على قابيل وهابيل "لأن الثقافة الحديثة التي أنتجتها الرأسمالية والتيارات العلمانية تنتهي حكماً في قتل الأخ عندما يجعل الناس العلاقات الوطيدة أساساً للعلاقات الاجتماعية" ولأن "الروابط الاجتماعية الحقة تظهر وكأنها غير طبيعية" يأخذ الحدث طابع المجموعات المشروطة بإثارة المشاعر، التي يبدو لها العالم الخارجي "أقل واقعية وأقل أصالة من الحياة داخل المجتمع"[٤٩]. إن نتائج التشابك والهجرة المساعدة على الاندماج تبدو من جديد كأنها معرضة لأن تصبح وهماً. أشكال متوازنة للتبادل تحتاج إلى شروط عامة، توضح بعضها تلك الظروف غير المعروفة كثيراً لعلاقات قديمة بين الشرق والغرب، لأن القتل المتوقع على يد إخوة معادين مفترضين فات فرانسيس الأسيسي المعتبر من كل النواحي بصفته ناسكاً دمثاً ومؤسس رهبانية- وهو معاصر لابن العربي – والذي أعطى مدينة سان فرانسيسكو اسمه. فعندما كان في سن الأربعين تقريباً قام عام ١٢١٩ برحلة إلى مصر ليقوم بالوعظ بأسلوب استفزازي إلى أن يقضي شهيداً. ولكن بسبب رد الفعل غير المتسرع، والحضاري بلا ريب، من قبل السلطات هناك، لم تتحقق له هذه الأمنية، فاضطر إلى قطع مناورة وساطته التي كانت تسيرها مصالح مكشوفة وأخرى مستورة.

في المنطقة نفسها حول القاهرة، حيث بحث فرانسيس الأسيسي عن الموت، نجد موقع أحداث المعالجة الروائية الحديثة لقابيل و هابيل التي ألفها نجيب محفوظ بعنوان "أولاد حارتنا"[٥٠] كأمثولة عن أوضاع دنيوية متكررة دوماً. ومع أن الرواية هوجمت بحدة من الجهات الإسلامية، إلا أنها متوفرة في كل مكان من العالم العربي. وفي هذه الرواية التي تسرد بحذر تاريخ العائلة والبشرية بصورة مجازية تدور الأحداث حول الشجارات اليومية والمواقف المتعنتة والروابط غير المرغوب بها، وقضية الخلف والصراع على الإرث، ومحاولات التوسط الفاشلة. إن موت هابيل المدعو هنا همام يعتبر في صيغة محفوظ حادثاً أو نهاية سيئة الحظ لشجار بدأه قدري (قابيل). ومسبب النزاعات ليس إلا زعيم العشيرة المتسلط والذي نظراً لسعة أملاكه يمكن مقارنته بـ" سادة الصحراء". وبالتدريج ولد شعور لدى أتباعه بأنه غير عادل في توزيعه للامتيازات، مما جعل أقرب أتباعه إليه وأكثرهم فعلية يخرجون على الأعراف التي وضعها.

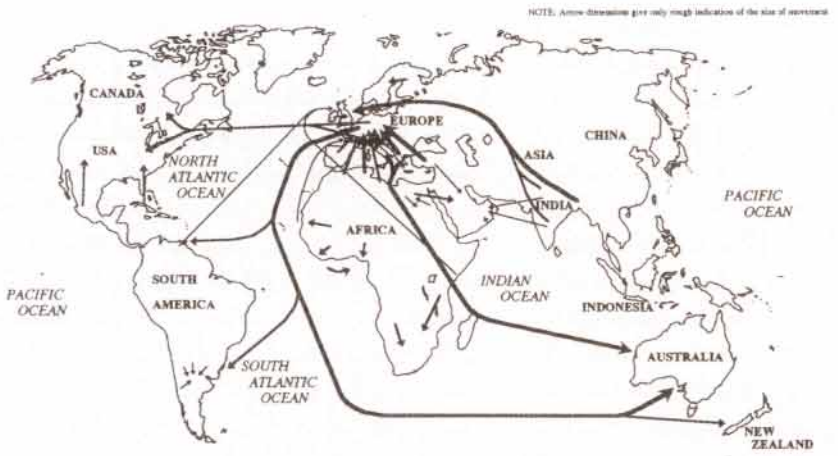

Abb.12: Globale Migrationsbewegungen 1945–1973. In: Stephen Castles/Mark J. Miller: The Age of Migration. International Population Movements in the Modern World. London 1998, S. 69

الصورة الثانية عشرة: الهجرات على المستوى العالمي ١٩٤٥–١٩٧٣.

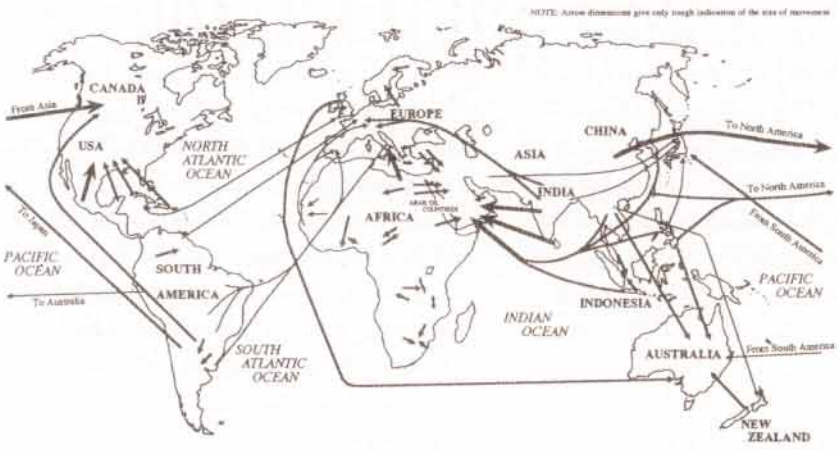

Abb.13: Globale Migrationsbewegungen seit 1973. In: Stephen Castles/Mark J. Miller: The Age of Migration, a. a. O., S. 7

الصورة الثالثة عشرة: الهجرات على المستوى العالمي منذ ١٩٧٣.

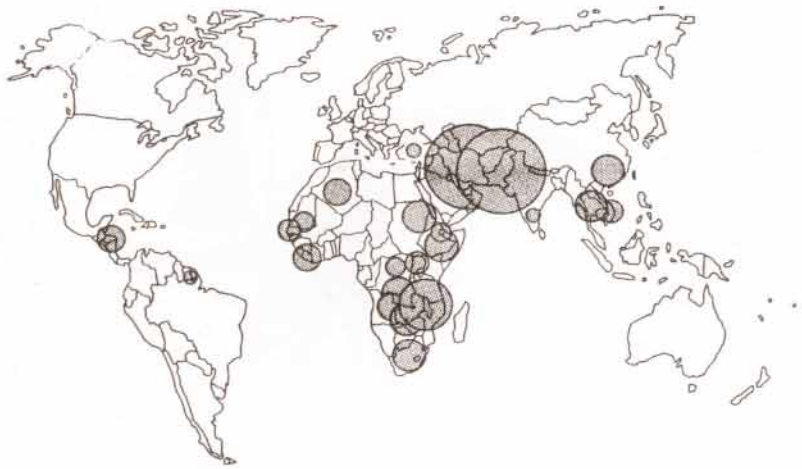

Abb.10: Globale Flüchtlingssituation in der letzten Dekade des 20. Jahrhunderts. In: Jean-Christophe Rufin: Das Reich und die Neuen Barbaren. (Paris 1991), Berlin 1993, S. 82

الصورة العاشرة: وضع اللاجئين في العقد الأخير من الألفية العشرين .

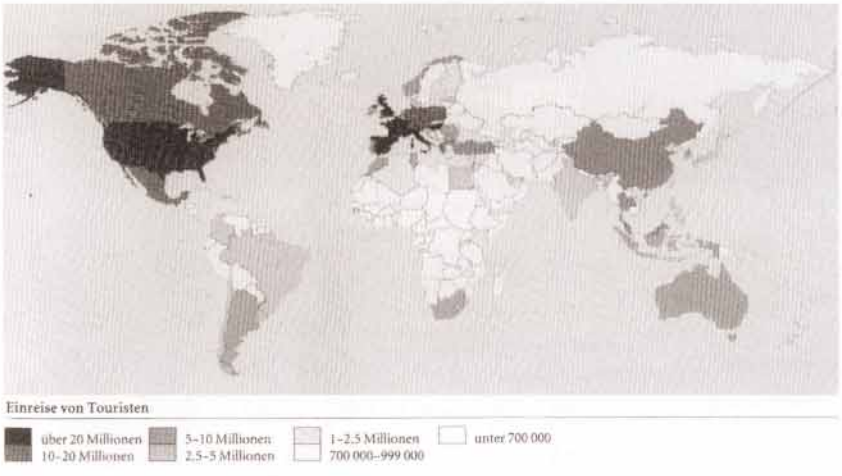

Abb.11: Globale Tourismusintensität. In: DuMont Weltatlas, Köln 1997, S. XXVII.

الصورة الحادية عشرة: كثافة السياحة العالمية.

Abb. 7: Luis Buñuel: Simon of the Desert, Spielfilm, 1965

الصورة السابعة: لويس بونويل: سمعان الصحراء، فيلم، ١٩٦٥.

Abb. 8: Reste der Simeon-Säule im Simeonskloster bei Aleppo

الصورة الثامنة: بقايا عامود سمعان في معبد سمعان قرب حلب.

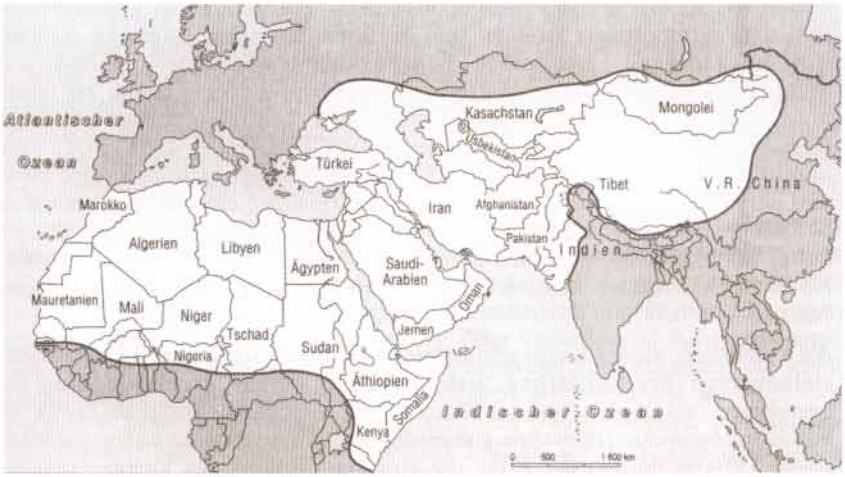

Abb. 9: Wissenschaftlich abgegrenzt: Die traditionelle Umwelt für Nomaden. In: Fred Scholz: Nomadismus. Theorie und Wandel einer sozioökologischen Kulturweise. Stuttgart 1995, S. 33

الصورة التاسعة: محدد علمياً: المحيط التقليدي للبدو.

١ أندرياس	أمالفي، بتراس، بروكسل، بوم
٢ أنطونيوس	أرليس
٣ أوغسطينوس	بافيا
٤ بربارا	فينيسيا
٥ فيليكس	أندرمات
٦ جورج	رايشناو/بودنسيه، براغ، كولونيا
٧ غريغور	موسكو
٨ هيلينا	روما، باريس، أوتفيلار، ترير
٩ الملوك الثلاثة المقدسون:	كاسبار، ملشيور، بلتزار كولونيا، ميلانو
١٠ ياكوبوس	سانتياغو دي كومبوسيتا
١١ يوحنا المعمدان	دمشق، بطرسبورغ، أثوس، سان جان رانجلي
١٢ لوكاس	بادوا
١٣ مرغريتا/مارينا	مونتفياسكوني بقرب فيتربو
١٤ ماريا المجدلية/مادلين	فزلي، سان مكسيم لاسان بوم، باريس، إكستير، هلبرشتات
١٥ ماريا	براتو
١٦ مرقس	فينيسا، رايشناو، بودنسيه
١٧ ماتياس	ترير
١٨ ماتيوس	سالرنو
١٩ موريتيوس	سان موريس
٢٠ بولس	روما، ترسوس، لندن، مونستر، فرانكفورت، كورفي، مالطا، ساراغوسا، أوتريشت
٢١ بطرس	روما
٢٢ فيليبوس	روما
٢٣ سيمون	روما، كولونيا، هرسفيلد
٢٤ شتيفان	روما، آخن
٢٥ تيودور	فينيسيا
٢٦ توماس	مايلابور بقرب مادراس، أورتونا، روما
٢٧ فيرينا	تسورساخ
٢٨ فيرونيكا	بوردو، روما

الصورة السادسة: ترحيل الآثار من مناطق المسيحية المبكرة نحو أوروبا (جزئيا كأسلاب حرب بعد احتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤م في الحملة الصليبية الرابعة).

قديسون من مرحلة المسيحية المبكرة وأماكن تواجد آثارهم :
ينتمون إلى المنطقة الشرقية من البحر المتوسط ويحملون أسماء بقيت مألوفة حتى الآن.

Abb. 2: Elia und Khidr an der Quelle des Lebens (Ausschnitt), persische Miniaturmalerei, spätes 15. Jahrhundert, Freer Gallery of Art, Washington D.C; In: Shaykh Muhammad Hisham Kabbani: The Naqshbandi Sufi Way. History and Guidebook of the Saints of the Golden Chain. Chicago 1995, S. 118

الصورة الثانية: إليا والخضر لدى بئر الحياة (مقطع)، رسم تصغيري فارسي، نهايات القرن الخامس عشر.

Abb. 4: St.Georg-Gedenkstätte in Damaskus

الصورة الرابعة: نصب القديس سانت جورج التذكاري في دمشق.

Abb. 3: In Damaskus verbreitetes Heiligenbild von St. Georg

الصورة الثالثة: صورة القديس سانت جورج المنتشرة في دمشق.

Abb. 5: George W. Bush, 4. April 2002, TV-Sender Al-Jazeera

الصورة الخامسة: جورش بوش، ٤ أبريل/نيسان ٢٠٠٢، محطة الجزيرة التلفزيونية.